الكتب

(١) الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية

تأليف الأستاذ محمد عبد الله عنان

(٢) من حديث الشرق والغرب

تأليف الدكتور محمد عوض محمد

للأستاذ محمود الخفيف

هما كتابان ، أشعر بكثير من الغبطة إذ أقدمهما للقراء على صفحات الرسالة ، ذلك لأنى أرى فى كليهما مظهراً من مظاهر الحركة الفكرية الحديثة فى مصر ، جديراً بالاعتبار والعناية .

أما أولهما فأثر جديد من آثار الأستاذ عنان ، والأستاذ عنان كما أعتقد ، قد أصبح بآثاره وبحوثه ناحية مستقلة فى نهضة التأليف المعاصرة ، ذلك أن آثاره تمتاز جميعاً بما تمتاز به الآثار العلمية القيمة ، من دقة البحث ، مع استقامة النهج ووضوح الغاية ، وقوة الأسلوب ؛ هذا إلى أصالة وسلامة منطق وبسطة فى العلم ، تظهر كلها واضحة فى تمحيص الروايات المختلفة فيما يعرض الأستاذ من حوادث وفيما يسرد من وجوه الرأى .

عرفنا له تلك الخلال فيما سلف من آثاره ، وإنا لنراها اليوم على خير ما يرجى من كتابه هـذا ، فهو يدور حول موضوع كان ولا زال مثار الجدل الشديد ومبعث التناقض والاضطراب ؛ ومن ثم فهو موضوع تظهر فيه مدى قوة المؤلف ونشاط ذهنه ، وحسبك الحاكم بأمر الله وحوادث عصره ، وما اكتنف شخصه من غموض وخفاء .

على أن الكتاب لا يدور كله على الحاكم ، بل إن نصيب الحاكم منه لا يزيد على نصفه بكثير . ولقد أحسن الأستاذ صنعا ، إذ جعل بقية الكتاب لدراسة أسرار الدعوة الفاطمية وخواص العصر الفاطمى ، هذا إلى ما أورده الاستاذ فى نهاية كتابه من الوثائق والسجلات الفاطمية .

مهد الأستاذ عنان لبحثه بمقدمة موجزة متينة عن حال مصر قبيل الفتح الفاطمى ، ثم بكلمة عن نشأة تلك الدولة فى مهدها ، وذكر بعد ذلك فتح مصر وأورد طرفاً من سيرتى المعز والعزيز ، كل ذلك فى إحكام المؤرخ المتمكن الذى يستطيع على رغم الايجاز أن يمهد السبيل لموضوعه خير تمهيد .

تناول الأستاذ بعد ذلك سيرة الحاكم ، وشرح فى جزالة ووضوح خلاله وصفاته وما لجأ اليه من سفك الدماء وما أقام من مراسيم اجتماعية ودينية ، وما اكتنف الدولة من الاحداث الخارجية ، ثم ما كان من أمر اختفائه ، ويعجبك منه فى هذا القسم من كتابه مهارة مناقشته الروايات المختلفة ودقة التعليق عليها ، تتبين ذلك فى مثل شرحه لنسب الحاكم وأخته ست الملك ، ثم فيما أورد من روايات عن صفاته ومزاجه وأخيرا فى حادث اختفائه .

على أن أهم الأشياء عندى فى الكتاب وأولاها بالدرس والاعتبار ، هو رأى الأستاذ المؤلف فى الحاكم وصفاته ، وهو رأى لم يسبقه إليه غيره فيما أعرف ، فالاستاذ لا يرى فى الحاكم ما اعتاد المؤرخون أن يروا فيه من رجل معتوه أخرق ، يبطش لمجرد البطش ، ويصدر من الأحكام الغريبة ما يدل على شذوذ وحمق . بل إنه على العكس يراه مصلحاً من كبار المصلحين ، كانت أعماله التى اعتاد الناس استنكارها وسائله إلى ما يتوخى من إصلاح لا أكثر من ذلك ولا أقل : نعم كان الحاكم عنده ، ذهناً بعيد الغور ، وافر الابتكار ، وكان عقلية تسمو على مجتمعها وتتقدم عصرها بمراحل ، وكان بالاختصار عبقرية يجب أن تتبوأ فى التاريخ مكانها الحق ،

والاستاذ لا يرسل القول جزافاً ، وكيف يقع لمن كانت له مثل متانة حجته وحصافة رأيه أن يجازف برأى ؟ وإنما راح الاستاذ يدافع عن رأيه هذا دفاعا قوياً يهرك ويستميلك . أليس القتل والطغيان هما من أقوى وسائل الديكتاتوريات الحديثة فى إقامة نظمها ؟ ثم أليست سياسة الحاكم هى السياسة الميكيافيلية التى قد يلجأ اليها كثير من الحكومات فى شتى

الظروف ؟ أليس الحد من حرية النساء مما تلجأ اليه اليوم المانيا النازية وايطاليا الفاشستية من وسائل محاربة الخلاعة والفجور اللذين يؤديان الى انحلال المجتمع؟ إلى غير ذلك من حجج الاستاذ وآرائه النيرة الظريفة التي تشوقك وتلذك . والاستاذ لا يبرر بها مسلك الحاكم كما استدرك ، ولكنه يدفع بها ما اتهم به .

بيد أني وإن أعجبتني تلك الآراء واستمالتني في كثير من المواقف ، قد أحسست شيئاً من الصعوبة في أن أحمل نفسي على الأخذ ببعضها . نعم رأيت مشقة في أن أنفي الشذوذ بل الجنون عن شخص يحرم الجرجير لأنه ينسب إلى السيدة عائشة ، والملوخية من أجل معاوية ، والمتوكلية من أجل الخليفة المتوكل العباسي ؟ وكيف أسيغ تشجيعه الدعوة الإلحادية ؟ وعلى أي أساس من العقل أحمل قتله قائده الفضل بعد أن هزم أبا ركوة الذي احتل مصر ؟ بل كيف يجوز في عقل خروجه ليلا إلى الجبل على ظهر حماره في غير قوة تحميه على الرغم مما كان يضطرم به المجتمع يومئذ من الرغبة في الانتقاض عليه والتخلص من طغيانه .

على أن الأستاذ يصرح في نزاهة المؤرخ وإنصافه ، أنه ليس يدعي أنه يستطيع أن يعلل كل قوانين الحاكم وإجراءاته وتصرفاته أو أن ينفذ إلى بواعثها وحكمتها جميعا ، فهناك كثير منها مما لا يستطاع فهمه وتعليله .

وقصاراي في هذا المجال الضيق أن أعلن إعجابي بهذا الكتاب ، وأن أنوه بما أفدته من دراسة أسرار الدعوة الفاطمية ونواحي العصر الفاطمي ، ذلك العصر الفذ الذي تجد من آثاره الأزهر المعمور ـ دراسة لم أظفر بمثلها فيما كتب حديثا عن الدولة الفاطمية . وكم كان عظيما من الأستاذ عنان ذلك الجهد المرير الذي تستبينه فيما يشير إليه من مراجع مكتوبة وخطية ليس ثمة من يستوعبها إلا من كان له مثل جلده ودأبه واخلاصه . ولا عجب أن جاء كتابه مظهراً من مظاهر الجد والقوة في نهضتنا الأدبية ، وهو مطبوع طبعاً جميلا في دار النشر الحديث ويقع في مائتين وست وسبعين صفحة من القطع الكبير ، بآخره ثبت حافل للمصادر ، وفهرس أبجدي عام

— ٢ —

يأتي بعد ذلك الكتاب الثاني « من حديث الشرق والغرب » للدكتور عوض ، وأحب أن أتخطى الكتاب إلى صاحبه برهة فأعرض عليك طرفاً من خلاله ، لا أرى مندوحة عن عرضه في مثل ذلك المقام . الدكتور المؤلف بما له من مكانة في حياتنا الأدبية غني عن التعريف ، ولكني أذكر لمن لم يعرفه إلا في آثاره أن من أبرز صفاته الذكاء الحاد وعذوبة الروح ومحبة الأدب حباً صادقاً ، حتى لو أنه حاول بكل ما في وسعه أن يهجر الأدب لما استطاع ذلك الهجران ؛ محدث ماهر طلي الحديث ، يميل إلى الفكاهة ولكنها الفكاهة التي يتخللها الجد المرير في غالب المواقف ؛ يحب قومه وبلاده حباً مؤكداً ؛ مثقف من الطراز الأول في الادبين العربي والغربي

ذكرت من خلاله ماذكرت لأمر يعنيني الساعة ، ذلك أن كتابه الذي أقدمه لك صورة صادقة من شخصه ، وذلك لعمري خير ما يوصف به كتاب لصاحبه مثل هاتيك الخلال . ولا جرم أن الصدق في الآثار الأدبية أكبر عامل في نفاذها إلى القلوب ودوامها على الأيام ، وإنك لتجد الصدق في هذا الكتاب في مقدمة فضائله

وبعد فما موضوع هذا الكتاب ؟ أهو سلسلة مقالات في شتى الفنون ؟ كلا فلست تجد فيه ما تجد غالباً في المقالات من غلظة وثقل يتقاضيانك كد ذهنك والتحامل على نفسك . إذاً فهل هو قصة أو مجموعة من الأقاصيص ؟ كلا ليس هو من ذلك الفن من فنون الأدب وإن كنت تحس روح القصة وتتمثل شبحها في كثير من مواضعه . ليس الكتاب من أدب المقالة وإن كان موضوعات متفرقة ، ولا هو من القصة وإن كان للكثير من موضوعاته شبحها ، وإنما هو « حديث » نعم هو « أساطير وخاطرات خطرت ملكت على الفكر سبله فلم يستطع تشريدها أو الفرار منها »

ينتظم هذا الكتاب ما جاشت به نفس صاحبه من معان وخطرات ، فاذا عدت الى ما سردت عليك من خلاله ، أمكنك أن تدرك موضوع الكتاب جملة وتلمح شيئا من روحه .

ذكرني هذا الكتاب الطريف الفذ ، بآثار الأديبين الانجليزيين الكبيرين « اديسون » وصاحبه « ستيل » . عمد هذان الكاتبان في كثير مما كتبا في مستهل القرن الثامن عشر الى نقد بعض أحوال المجتمع ودراسة بعض الأشخاص ، بطريقة لطيفة هادئة ، لا ترى فيها أثرا للهجوم اللاذع ولا التجريح القاسي